هوامش

أحبّ الغزي صلاح قديح صناعة الأفران الطينية مذ كان صغيراً. واليوم، باتت هذه الأفران مطلوبة في غزة بسبب انقطاع التيار الكهربائي والغاز

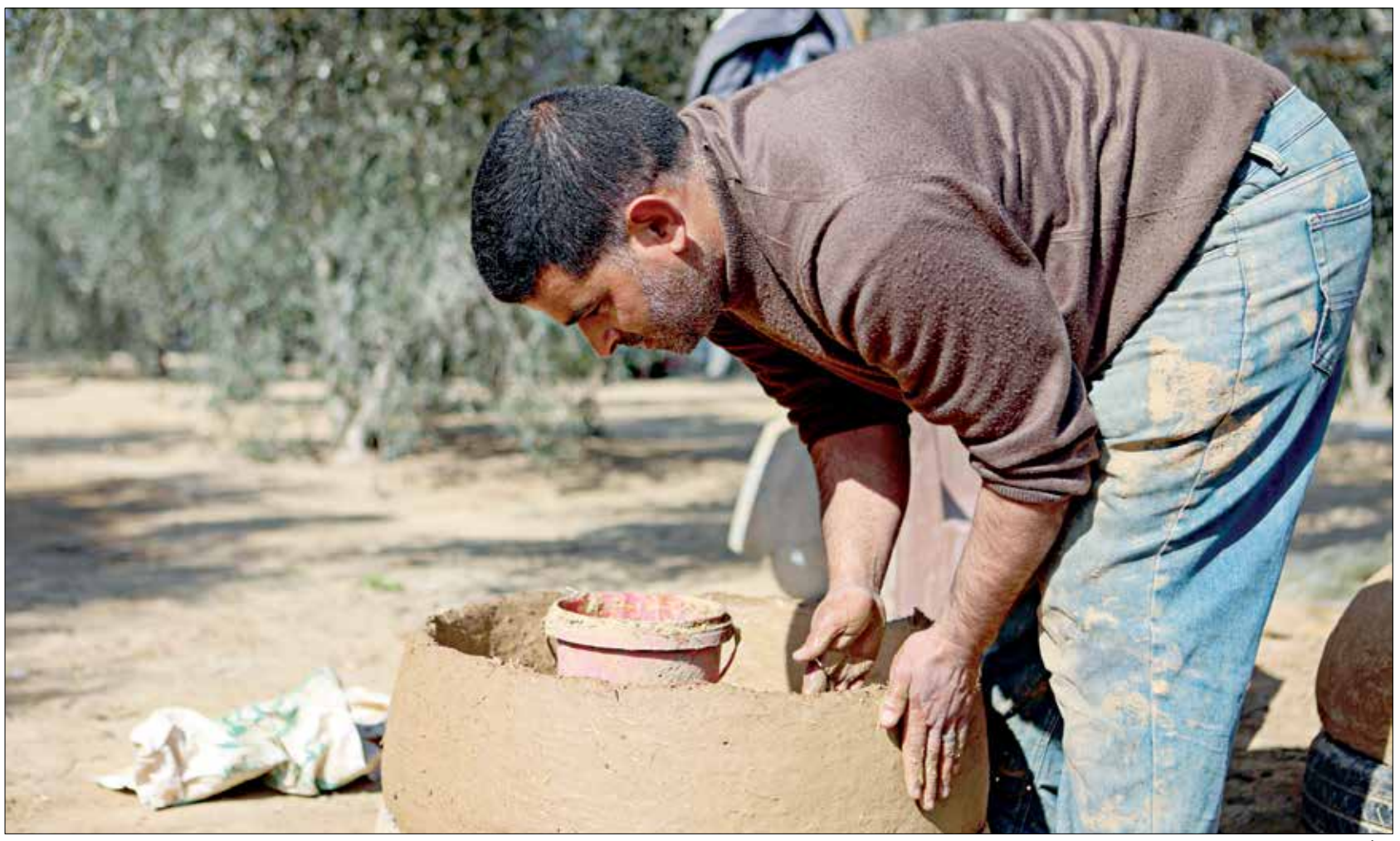

ورث هذه المهنة عن والدته وجدته (محمد الحجار)

صلاح قديح

صانع أفران الطين في غزة

غزة ـ **أمجد ياغي**

يُسمّي صلاح جمعة قديح (38 عاماً) الأفران الطينيّة التي يصنعها بأفران الطين السعيدة لأنها تسعد العائلات الغزية، خصوصاً أنها لا تعتمد على الكهرباء والغاز اللذين ينقطعان باستمرار في قطاع غزة نتيجة الحصار الإسرائيلي والأزمات السياسية والمعيشية وغير ذلك. غالباً ما تراه يتنقل من منزل إلى آخر لتركيب الفرن الطيني.

قبل نحو 20 عاماً، بدأ بصناعة الأفران الطينية لسكان البلدات شرق مدينة خانيونس جنوب القطاع. وفي الوقت الحالي، امتد نطاق عمله إلى كل محافظات قطاع غزة، وهو يفتخر لأنه ورثها عن والدته تائبة البالغة من العمر 72 عاماً، وجدته صبيحة التي توفيت قبل عقد من الزمن.

في طفولته، كان قديح يستمتع بالجلوس قرب والدته وجدته خلال صنع الأفران الطينية لسكان البلدات الشرقية في خانيونس وبعض منازل مخيم خانيونس (الجزء الجنوبي من قطاع غزة). كان يتابع كيفية صنع الفرن الطيني ومكوناته محاولاً تقليدهما سراً من دون أن ينجح. وفي بعض الأحيان، كان يوبخ من قبل والدته إذا ما اكتشفت الأم الأمر وتسبب بفوضى في المكان. بعدها، اتخذت قراراً بتعليمه.

في البداية، أتقن قديح صنع أكواخ طينية صغيرة للبط والأوز التي يحتاجون إليها خلال فصل الشتاء. بعدها، تعلم بناء أبراج الحمام الطينية القديمة في بلدة بني سهيلا شرق مدينة خانيونس، ثم استطاع صناعة أول فرن طيني وهو في 17 من عمره، ليبدأ العمل بها بعد عام.

يقول قديح لـ «العربي الجديد»: «كثيرون يفتخرون بأنهم ورثوا مهن آبائهم وأجدادهم. وعندما يسألونني، أقول لهم إنها مهنة والدتي وجدتي مفتخراً، الأمر الذي يثير استغرابهم، إذ ينتظرون سماع أنها مهنة جدي أو والدي». يضيف: «أفتخر كثيراً بوالدتي وجدتي اللتين صنعتا أفراناً طينية تراثية فلسطينية».

ويشير قديح إلى أنه يصنع أفراناً أصغر من تلك القديمة وأكثر متانة وقوة، وتعدّ سهلة التركيب بالمقارنة مع الأفران التراثية كبيرة الحجم.

كان قديح يعمل في مجال النقل وغيره من المهن المؤقتة في ظل عزوف الناس عن الأفران الطينية بين عامي 2007 و2012، إضافة إلى صناعة وتركيب الأفران لعدد قليل من الناس. بعدها، بدأ الناس يعودون إلى الأفران الطينية. وخلال العامين الأخيرين، أصبح الكثير من الأهالي يطلبون منه صناعة وتركيب أفران طينية لهم، مضيفاً أن «الأفران الطينية كانت جزءاً من حياتنا في وقت سابق للطهي والخبز وإعداد الحلويات. للأسف، أشقائي لم يتعلموا المهنة معتبرين أنه لا مستقبل لها. في فترة من الزمن، اعتقدت أنهم على حق. لكن اليوم، عرفت مدى أهميتها. الناس في القطاع منكوبون، وقد يحرمون من الخدمات الأساسية في أية لحظة. وهذا الفرن له أهميته في كل وقت وزمان».

تشكّل هذه الأفران بهجة لبعض الناس في غزة الذين يتوقون لمذاق الأكلات الشعبية الفلسطينية المصنوعة من خلال الأفران التراثية، بحسب قديح. يقول إن عمله يحتاج إلى دقة. بداية، يضع البلاطة الأساسية، ثم ينقع الطينة على مدى يومين مع المياه والشعير، ثم يتم وضع التبن عليها لتتماسك أكثر ويتركها تحت أشعة الشمس. في اليوم التالي، يصنع شكلا دائرياً ثم ينتقل إلى صنع رأس الفرن وبناء المداخل بشكل قوي، ويتركه ساعات تحت الشمس. يصبح الفرن جاهزاً بعد يومين. ويستغرق تركيبه في المنازل نحو نصف ساعة. لكن لا يمكن استخدامه قبل تماسك الطين، أي بعد نحو ثلاثة أيام.

زادت شهرة قديح في صناعة الأفران الطينية بسبب تصميمه أفراناً يمكن وضعها في أية زاوية في المنزل، وصار له زبائن من كل أنحاء قطاع غزة. لكن في فصل الشتاء، تقل صناعة الأفران الطينية بالمقارنة مع فصل الصيف بسبب تدني درجات الحرارة وبالتالي تأخر تماسك الطين.

يبقى الفرن الطيني صالحاً للاستخدام ما بين ثلاثة أعوام وستة، بحسب الاستهلاك. ويقدر سعر الفرن الواحد بنحو مائة شيكل (نحو 30 دولاراً أميركياً). وبالنسبة لسكان القطاع، يعد أرخص ثمناً من أنبوبة الغاز التي يصل سعرها إلى 57 شيكل (نحو 17 دولاراً أميركياً)، ولا يحتاجون إلى غير الأخشاب. لدى قديح ولدان وثلاث بنات. يرافقه ولداه اللذان يستمتعان بمشاهدة والدهما خلال صناعة الأفران، ويحاولان تقليده في بعض المرات في المنزل. ويرغب الأب في تعليمهما المهنة عندما يكبران.

باختصار

في طفولته، كان قديح يستمتع بالجلوس قرب والدته وجدته خلال صنع الأفران الطينية لسكان البلدات الشرقية في خانيونس وبعض منازل مخيم خانيونس. كان يتابع كيفية صنع الفرن الطيني ومكوناته محاولاً تقليدهما سراً من دون أن ينجح. وفي بعض الأحيان، كان يوبخ من قبل والدته إذا ما اكتشفت الأم الأمر وتسبب بفوضى في المكان. بعدها، اتخذت قراراً بتعليمه.

■■■

بالنسبة إلى سكان القطاع، يعد الفرن الطيني أرخص ثمناً من أنبوبة الغاز التي يصل سعرها إلى 57 شيكل (نحو 17 دولاراً أميركياً)، ولا يحتاجون إلى غير الأخشاب

وأخيراً

المثقف والسلطة... أي علاقة؟

سعدية مفرح

أعادني مشروع «تكوين المثقف» الذي أعلنت عنه، ودعتنا إلى المشاركة فيه، أخيرا، مكتبة طروس لدراسات الشرق الأوسط في الكويت، إلى التفكير مجدّدا بمعنى «المثقف» دورا ومصطلحا، وهو المعنى الذي حاولت دائما البحث فيه والكتابة عنه، وفق ما أجده متاحا أمامي، ليس من كتابات وقراءات تتماسّ معه وحسب. ولكن أيضا وفق ما أتلمس من تطبيقات عملية حياتية له في راهننا المعاش. ومن مقالاتي التي بحثت عنها تحضيرا للمشاركة في حفل إعلان المشروع مقال قديم عن «أبي تمام والأمير أو المثقف والسلطة»، بحثت عنه في دروب الإنترنت طويلا، ولم أجده، ما شجّعني على تحريره مجدّدا، ونشره في هذه المساحة المتاحة في «العربي الجديد»، وهو يتناول واحدة من حكايات الشاعر أبي تمام مع الأمير (أي أمير)، بما يمثل علاقة المثقف بالسلطة، أي سلطة.

وقصد الشاعر أبو تمام، وفقًا لرواية الأصفهاني في أغانيه، خراسان، فاجتمع الشعراء إِلَيْهِ، وسألوه أن يُنشدهم، فَقَالَ: قد وعدني الأمير أن أنشده غدًا، وستسمعون. فَلَمَّا دخل عَلَى عَبْد اللَّهِ أنشده:

أَهُنَّ عَوادي يوسُفٍ وَصَواحِبُه/ فَعَزماً فَقِدماً أَدرَكَ السُؤلَ طالِبُه

إِذا المَرءُ لَم يَستَخلِصِ الحَزمُ نَفسَهُ/ فَذِروَتُهُ لِلحادِثاتِ وَغارِبُه

أَعاذِلَتي ما أَخشَنَ اللَيلَ مَركَباً/ وَأَخشَنُ مِنهُ في المُلِمّاتِ راكِبُه

فَلَمَّا بلغ إلى قوله: وَقَلقَلَ نَأيٌ مِن خُراسانَ جَأشَها/ فَقُلتُ اِطمَئِنّي أَنضَرُ الرَوضِ عازِبُه

وَرَكبٍ كَأَطرافِ الأَسِنَّةِ عَرَّسوا/ عَلى مِثلِها وَاللَيلُ تَسطو غَياهِبُه

لِأَمرٍ عَلَيهِم أَن تَتِمَّ صُدورُهُ/ وَلَيسَ عَلَيهِم أَن تَتِمَّ عَواقِبُه

صاح الشعراء بالأمير أَبِي الْعَبَّاس: مَا يستحق مثل هَذَا الشعر غير الأمير أعزّه اللَّه. وَقَالَ شاعر منهم، يعرف بالرياحي: لِي عنده أعزه اللَّه جائزة وعدني بهَا، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء عَنْ قوله للأمير. فَقَالَ لَهُ الأمير: بل نضعفها لك، ونقوم لَهُ بِمَا يجب لَهُ عَلَيْنَا. فَلَمَّا فرغ من القصيدة نثر عَلَيْهِ أَلف دِينَار، فلقطها الغلمان ولم يمس منها شيئا، فوجد (غضب) عَلَيْهِ الأمير، وَقَالَ: يترفع عَنْ بري، ويتهاون بِمَا أكرمته بِهِ؟ فلم يبلغ مَا أراده مِنْهُ بعد ذَلِكَ».

انتهت قصة أَبي تمام مع الأمير في كتاب «الأغاني»، ولم تنته قصة الشاعر أو المثقف في كتاب الحياة مع الأمير أو مع السلطة.

قد يكون أبو الفرج الأصفهاني مبالغًا، كعادته في رواية القصة على هذا النحو، خصوصا إن قرأنا في سيرة أبي تمام، ما يتناقض معها، بشكل أو بآخر، وفقًا لطبيعة العلاقة السائدة بين الشاعر والأمير، أو بين المادح والممدوح آنذاك، ولكنها على أي حال،

> انتهت قصة أبي تمام مع الأمير في كتاب «الأغاني»، ولم تنته قصة الشاعر أو المثقف

وبغض النظر عن دقتها التاريخية، تصلح لأن تكون مثالًا نموذجيًا لتلك العلاقة المتأرجحة ما بين المثقف والسلطة في كل زمان ومكان. وبالتأكيد في النظم السياسية التي لا تحتكم إلى الديمقراطية، ولا يسود فيها مبدأ تداول السلطة والحكم تحديدًا، كما في أغلب بلادنا العربية.

لقد غضب الأمير على الشاعر، لا لأن الشاعر قد انتقده على سبيل المثال، بل لأنه ترفّع، لسبب أو لآخر، عن نيل عطائه الذي تفضّل به هذا الأمير عليه، بعد أن أطربه ما قال فيه، فما بالك لو أن أبا تمام كان قد انتقده بدلًا من أن يمتدحه؟ أو هاجمه بدلًا من أن يُشيد به؟ أبو تمام هنا، أي في ذلك الموقف، وبلغة العصر الراهن، إنما هو شاعر موالٍ لا معارض، فقد قطع المسافات الطويلة إلى سلطانه ليمتدحه، لا ليقول بين يديه كلمة حق مثلًا، بل إنه بالغ في مديحه إلى الدرجة التي شهد له بها منافسوه في الموالاة من الشعراء الحاضرين، لكن مشكلته أنه كان يوالي السلطان وفقًا لطريقته هو، لا طريقة السلطان. ولهذا حلت عليه اللعنة السلطانية، فحرم من العطاء لاحقًا، لأنه رفض طريقة العطاء وشكله، وربما كميته، وحسب... وللحكاية مع الحكاية بقية.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**